الأدب الجزائري القديم في ظل التيارات الفكرية
قراءة في جذور الصراع والجدل

Ancient Algerian literature in light of intellectual currents
Read the roots of conflict and controversy

د. كمال لعور[1،*]

[1] جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف - الجزائر

تاريخ الإرسال: 2019-08-02؛ تاريخ القبول : 2019-09-17؛ تاريخ النشر : 2020/04/27

ملخص: التحم الأدب الجزائري القديم بالحركات الفكرية وعكس ما يجري من صراع بين السنيين المالكيين وبين الإباضيين أو بينهم وبين المعتزلة، أو بين الأشاعرة أنصار الفروع والمتكلمين أنصار الأصول وبين المتصوفة أهل الحقيقة والفقهاء عباد الظاهر، وقد اتخذ العلماء الشعر كما اعتمدوا النثر لبيان الحقائق ومحاججة الخصوم، فاستفاد الفكر من هذا الحراك خاصة في العهد الموحدي والحمادي والمريني على عكس الفترة المرابطية والفاطمية، فسعت الأولى الى فرض المذهب المالكي عنوة دون منازع وأرغمت الثانية الناس على التشيع. فمن هم رواد هذا الحراك الفكري ؟ وكيف أسهم شيوع الجدل والمناظرة في تطوير البيئة الثقافية والأدبية.

الكلمات المفتاحية : المذاهب الفكرية، الأشاعرة، المالكية، الاباضية، المتكلمون،المناظرة،النثر،الشعر

Abstract: *The ancient Algerian literature was associated with intellectual movements and reflected the conflict between Sunni almalikiiyn and ibadis or between them and mu'tazila or between poets and almutakalimin and between Sufis and scholars, scientists took poetry and prose to show the facts and to confront their adversaries by thought and doctrine. Thought has benefited from this movement, especially in the Almohad period, hammadi and marini, unlike the Almoravid and Fatimid periods The first state sought to impose the Maliki doctrine with force and the second forced the people to Shiism. Who are the pioneers of this intellectual movement? And how did they develop debate and intellectual dialogue?*

Keywords: *Intellectual doctrines, poets, Maalikis, Ibadis, speakers, discussion, prose, poetry*

*المؤلف المرسل: laouer.kamel@yahoo.com

وجد الجزائريون بعض الأمان في عهد الازدهار الثقافي والفكري الأول زمن الدولة الرستمية 160هـ-776 م299هـ-911م المؤسسة من قبل عبد الرحمان بن رستم[1] وقد لقي من سكان تيهرت الترحيب والإعانة.

هذه الدولة الفتية التي عمرت زهاء قرن ونيف من الزمن عرفت نشاطا فكريا جعل بعض الكتاب مثل ابن الصغير المالكي[2] يطلق عليها تسمية عراق المغرب،نظرا لما شاع فيها من علم وفرق وكلام، ويكفي أن نورد اسم مكتبة المعصومة التي ضمت آلاف المجلدات حتى نعرف القدر الثقافي لهذه العاصمة.

ولم تقم لهذه الدولة قائمة إلا بعد صراع مع الدولة العباسية التي أرسلت جيوشاً لدكّ حصونها دون أن تفلح، فقد كانت الدولة الرستمية إباضية خارجية ثورية[3]، وكان مذهبها يملي عليها الثورة على الظلم والاضطهاد والطغيان.

فكان هذا التصادم أول المؤشرات الحقيقية المعبرة عن طبيعة النفسية الجزائرية التي تسعى بكل مجهود فكري وبدني إلى دحض الأفكار المناوئة، وقد أورثهم المذهب الإباضي رزانة في الطرح أحيانا وتعصبا شديدا واندفاعا في مواجهة الخصم بلا خوف أو وجل أحيانا أخرى.

1. الحركة الإباضية تحترف المناظرة والجدل:

ومن هنا يمكن التأسيس لأرضية صراع فكري قديمة نشأ وترعرع منذ بداية الدولة الجزائرية الرستمية التي يعتبرها البعض"أول دولة إسلامية جزائرية مستقلة"[4] ولم يقدم الاباضيون على تبديع من يشتغل بالكلام كما هو الحال عند المالكية، بل رغبوا فيه وأثنوا على المشتغل به،وجعلوه من اختصاص النخبة[5]

وقد أشار ابن الصغير المالكي إلى مناظرات كانت تندلع بين المعتزلة والإباضيين مما يدل على شيوع الجدل والنقاش الفكري في عهدهم فيقول "اجتمعت المعتزلة والإباضية بنهر مينة لموعد جعلوه بينهم، وكان كثير ممن حضر يتسمى بعبد الله بكسر الدال، ولما إجتمع القوم وضمهم المكان نادى رجل من المتعزلة يا عبد الله بكسر الدال، فأجابه رجل من القوم،فقال لست أريدك،ثم نادى ثانيا فأجابه رجل ثان،فقال لست أريدك،فقال عبد الله وقد علمت أنه إياي يريد فكرهت أن أجيبه خوفا من سؤاله،فقال عبد الله بن اللمطي أريدك، فقلت لبيك،فقال لي هل تستطيع الانتقال من مكان لست فيه إلى مكان لست فيه،فقلت لا،فقال هل تستطيع الانتقال من مكان أنت فيه الى مكان لست فيه،فقلت إذا شئت،فقال خرجت منها يا ابن اللمطي" [6]

وقد ذكر ابن الصغير مناظرة جرت بينه وبين بعض وجوه الإباضيين بعد أن أنكر عليهم الخوض في خلافات الصحابةوالتشنيع عليهم، فكان يقول عنهم "وان كنا للقوم مبغضين ولسيرهم كارهين ولمذهبهم مستقلين"[7]

"قال من أين زعمتم وزعم أصحابك وغيرهم من الحجازيين وأهل العراق أن الرجل إذا زوج ابنته البكر وهي صغيرة وأدركت، أن لا خيار لها في نفسها، وأنتم تقولون أن الرجل إذا زوج آمته وعتقت أن لها الخيار ولا فرق بين الآمة وبين الصغيرة، لأن الآمة لم يكن لها حكم في نفسها وإنما كان الحكم لسيدها، فلما أدركت صار الأمر إليها، فلم منعتموها لما أجزتم للآمة والمعنى واحد، فقال ابن الصغير:" إن صحة ذلك من القرآن "واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا"[8]

فيرد عليه خصمه عجبا منك ،أنا أسئلك عن عقد النكاح ونسخه وأنت تخبرني عن عدد المؤيسات(اللائي بلغن سن اليأس) وعدد اللائي لم يحضن،فقال ابن الصغير: فهل يقع طلاق من غير أن يكون عقد نكاح؟ قال لا، قلت في المؤيسات فمنهن اللائي قد بلغن من السنين ما لا يحضن مثلهن، قال نعم،قلت واللائي لم يحضن منذ الصغر، قال نعم، قلت فأوجب الله عليهن عددا، قلت أمن طلاق أم من غير طلاق، قال من طلاق، قلت فيكون طلاق من غير عقد نكاح، فسكت ولم يرد جوابا[9]

ونعثر في هذا السياق على بعض بواكير الجدل المندلع في مجال السياسة والدين عكسته كتابات أئمة جزائريين على رأسهم أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن[10] في جملة من الرسائل الديوانية منها "نموذج من رسالة إلى ميال بن يوسف في حق نفات بن نصر النفوسي[11] والتي يتهمه فيها بإثارة زوبعة كلامية في جبل نفوسة.

وقد كان الامام أفلح بن عبد الوهاب الرستمي ثالث أئمة الدولة ولي إمامة الإباضية في تيهرت عام 190 هجرية خرج في عهده عن دائرة الآداب فرج المعروف بنفات بن نصر النفوسي، وطفق يطعن في الأئمة الرستميين وخالف المسلمين في مسائل استحق بها البراءة.

منها قوله: إن الله هو الدهر الدائم، ولما سئل عن ذلك قال: هكذا وجدته في الدفتر، يعني الكتاب المسمى بهذا الاسم ومنها إنكاره الخطبة في الجمعة وادعاؤه أنها بدعة وضلالة، إلى غير ذلك من المسائل التي انتحل فيها الخلاف.[12]

فجمع بين الذكاء والخطابة وسعة العلم مع زميله سعد بن أبي يونس النفوسي، "فتوجه العلامة سعد بن أبي يونس بإشارة من والده إلى "تاهرت" لتلقي العلوم فيها، فصحبه نفات هذا، وأقاما يلازمان فيه مجالس الإمام وغيرها من نوادي العلم حتى ادركا درجة استحقا بها الذكر.

وكانت تظهر على سعد دلائل للصلاح، وتلوح عليه سيماء العفة والاستقامة أكثر من نفات. وإن حاز نفات السبق في الذكاء والفهم على كثرين من اترابه.

وبينما هما كذلك إذ بلغ الإمام وفاة أبي يونس عامله على "قنطرارة" وهو والد سعد، ولما سمع سعد بذلك حن إلى وطنه للقيام بأشغاله، فاستأذن الإمام في السير فأذن له. وطمع نفات بالولاية، فعزم على السفر مع سعد راجيا أن يعينه الإمام حاكما في مكان أبي يونس ويرجحه على سعد "

لكن الولاية عادت لسعد فشرع نفاث ينفث سموما وبدعا يعينه على ذلك لسانه الخطيب وتمكنه العلمي وقد صبر سعد عليه كما صبر عليه الامام والحاكم الرستمي أفلح بن عبد الوهاب وعندما وصلته رسائل من عماله تشرح الوضع عزم على الرد عليه لردعه، فكتب لعامله رسالتين ووجه الثالثة لنفات يناقشه في مسائله التي ادعاها ووجده متصلبا برأيه مستمسكا به فكان مما قاله لعامله ميال بن يوسف في شأن نفات:" إن أصاب لم يدر، وإن أخطأ لم يدر. فهو راكب مشكلات يخبط خبط عشواء، كحاطب ليل لا يدري ما يحطب، ولعله يحتطب ما فيه حتفه، أو حية تأتي على نفسه. فنعوذ بالله من الفتنة ومن السلوك على منهاج ذلك الرجل"[13]

وأعقب الامام أفلح رسالة أخرى يصف فيها هذه الفتنة بروح العالم وبسعة صدر ه وليس بنزق الحاكم المتسرع "وذكرتم أمر نفات، وأكثرتم فيه الكتب، ووصفتم عنه أشياء لا يشك أحد منكم أنها بدعة وخلاف لما مضى عليه سلفكم، فإن يك ذلك كما وصفت فما ينبغي لأحد منكم أن يخالجه الشك في أن ذلك ضلال، لأن الهدى في أيديكم، والحق ما شرعه لكم سلفكم الصالح والأئمة المرضيون، رضي الله عنهم. فمن أتى من بعدهم بما يخالف شريعتهم، ويأخذ في غير طريقتهم فهو ذو بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلال كفر، وكل كفر في النار." وقد فتح له الإمام باب الرجوع عن غيه ثم توعده في الأخير في حال إصراره "فقوموا عليه. فإن رجع عن مقالته، ونزع عن بدعته فمقبول منه رجوعه، ومرحبا بالتائب حيث كان، وممن كان، وأين كان، وإن أبى إلا التمادي فانتم تعلمون السيرة فيمن ابتدع في دين الله وشق عصا الإسلام وقال بخلاف الحق، فإنه محقوق بأن يهجر ويقصى ويبعد، ونفات مثل واحد من الناس، لا أخصه بشيء دون غيره، والسيرة فيه وفي غيره واحدة، والسنة قائمة، وحكم الله لا يزول ولا يتبدل."[14]

وفي الرسالة الثالثة التي وجهها الى نفاث نفسه نرى سعة صدر المحاور ومدى صبره على مخالفه كأنه يقدم درسا لغيره في طريقة التعامل مع المخالف بما يشير لراجحة عقل بعض الأئمة بالمغرب العربي وعدم تماديهم في الظلم "وقد كتبت إليك غير كتاب، انصح لك فيه، وأدعوك إلى رشدك، وفي كل ذلك لا يبلغني من عمالنا فيك إلا ما أكره، ولا أرضاه لدين ولا دنيا حتى حررت كتابا منشورا إلى عمالنا أمرتهم فيه بخلع كل من خالف سيرة المسلمين وابتدع غير طريقتهم وسار بغير سيرتهم، وبنفيه وهجره وإقصائه، فكتبت إليّ كتابا كأنك تسخط ذلك، أترى أنني أؤازر من ابتدع في ديننا، كلا ما كنت بالذي يفعل ذلك. ولا أؤازر من يسعى في خلافنا ما كنا على هدى.

ثم قلت: إنا أمرنا في كتابنا بالبراءة منك. فإن كنت كما كتب به إلينا عمالنا فأنت محقوق بالبراءة، ومقصي من جماعتنا،لأننا ما كتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا وزعم أن

عمالنا أساقفة، وأنهم لا طاعة لهم في حال كتمانهم، فهو محقوق بالبراءة ومقصي من جماعة المسلمين، فإن تكن أنت منهم، فأنت الذي أبحتَ لنا البراءة منك، وأحللت بنفسك ما لابد لنا أن نفعله بك وبغيرك.فإن لم تكن كذلك فأظهر الانتفاء من ذلك، وكذب عن نفسك ما قيل عنك، لتكون عندنا بالحالة التي تستحقها وتستوجبها."

وختم له بقوله "وإن يكن حقا ما رقي عليك وما قيل فيك من مخالفة أصحابنا فأنت وما رضيت به لنفسك، وإني غير كاتب إليك كتابا بعد هذا، إلا إن انتهى إلينا منك ما نحبه، فننزلك من أنفسنا بحيث تحب."

فعرف نفاث أن زمن الحوار قد انتهى وأن زمن العقاب قادم فجمع أمره وذهب قاصدا بغداد.

يستشف مما سبق أن الحوار بين الحاكم والعالم قد سار وفق ثلاث مراحل أولا النقاش وتفهم الأفكار وتبين الحقيقة وقد عكسته الرسالة الأولى، والثانية الدعوة الى العودة والإنابة عن الفعل بعد إثباته من خلال عمال الإمام أو تصريح نفاث، والثالثة كان التهديد والوعيد تعريضا دون صريح عبارة، ما يعني أن الحوار مغربيا بلغ مبلغا من رجاحة الفكر والطرح عند الحاكم المسلم مع المخالفين،

ولم يكن الجدل دائما يسير على هذا المنوال، فقد يسري التعصب بين الفرق وقد يعظم خاصة بين الإباضيين والمالكيين وهو ما حدث لأحد أعلام علم الكلام الإباضيين أبو عمرو عثمان خليفة السوفي المارغني [15]

صاحب مؤلف رسالة في الفرق، عندما رحل لبلاد الحامة لتفقد أحوال الإباضية فوجد البلاد صارت للمالكية، ولما وصلت أخباره إلى المالكية بها قدموه للمناظرة فسئلوه: هل يجوز في مذهبكم نكاح نسائنا؟ وكان رده إذا كان نكاح الكتابية جائز فكيف بالمسلمة،قالوا نزلتنا منزلة اليهود والنصارى،فقاموا عليه شتما وطردا،ونفوا الوهبية، وأكرهوا من بقي على الرجوع إلى مذهبهم،وغسلوا المسجد الكبير من مساجد الوهبية وقالوا هذا تطهير له[16]

ولم يتوقف الجدل الفكري عند باب النثر والرسائل فقط بل انتقل أمره إلى الشعر فتحولت القصائد إلى ميدان لإظهار الحقائق ورد الخصوم وهو ما حدث مع بكر بن حماد[17] شاعر الجزائر والمغرب العربي على عهد الدولة الرستمية، عندما عارض دعبل الخزاعي من متعصبة الشيعة كما عارض عمران بن حطان[18]لمدحه ابن ملجم على قتله عليا ابن أبي طالب، ومما قاله له:

قل لابن ملجم والأقدار غالبـــــة هدمت ويلك للإسلام أركانـــــا

قتلت أفضل من يمشي على قــدم وأول الناس إسلاما وإيمانــا

فلا عفا الله عنه ما تحملــه ولا سقا قبر عمران بن حطـانا

لقوله في شقيِ ظلّ مجترمــا ونال ما ناله ظلما وعدوانــا

يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بهـا إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانـا

بل ضربةٌ من غويٍّ أوردته لظىً فسوف يلقى بها الرحمن غضبانا

كأنّه لم يرد قصداً بضربتـه إلا ليصلى عذاب الخلد نيرانـا

وتدل هذه الأبيات دلالة قاطعة على تمكن الشعراء الجزائريين من المناظرة شعرا واتخاذه في مواجهات حامية الوطيس لنصرة أفكارهم وللدفاع عن الحقائق حتى وإن غمرها التعصب الأعمى فبكر بن حماد يدافع عن الإمام عليّ من غير تشيع ويهجو من يتعصب لقاتله.

وقد استغل أيضا هجاء دعبل للخليفة العباسي المعتصم وحرض الخليفة عليه شعرا حتى قال له أبو تمام قتلته والله يا أبا بكر، ومن هذه الأبيات قوله:

أيهجو أمير المؤمنين ورهطـه ويمشي على الأرض العريضة دعبل

أما والذي أرسى ثبيرا ورهطـه لقد كانت الدنيا لذاك تزلـزل

ولكن أمير المؤمنين بفضـله يهم فيعفو, أو يقول فيفعـل

ويحفظ التاريخ لبكر بن حماد موقفا آخر عند مقامه بالقيروان قادما من المشرق العربي، فقد تركها هاربا إلى بلاده تيهرت بعد أن كثرت ضده الوشايات إلى الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي حاكم إفريقيا بأنه يذكره في مجالسه وبصفه بالظالم والفاسق، فتوعده خاصة بعد رفضه وتشنيعه على الأمير ومن يرى رأيه في مسألة خلق القرآن الكريم بعد اعتناقهم لآراء وأقوال فرقة المعتزلة في هذه المسألة، بينما اعتصم بكر بن حماد وكثير من أهل القيروان بأقوال أهل السنة والجماعة ورفضوا رأي المعتزلة وتعاليمها.

ويمكن في هذا السياق أن نستجلي حقيقة تاريخية بالغة الأهمية هي مدى إحاطة الأديب ورجل الدين الجزائري بما يحدث في بقية الأصقاع الإسلامية خاصة المشرقية منها بل والتفاعل مع أحداثها دون أن يخفي آراءه الفكرية والعقيدية,

وإن كان الأدب في عهد الرستميين قد ورث رقة في الاحساس وشدة في المناظرة والاعتراض فإن فترة الأغالبة[19] شهدت توسعا في الأفق الفكري لكون أمراء الأغالبة أنفسهم قد فتحوا المجال للمدارس الفكرية تدلي بدلوها وتقدح زناد الفكر والثقافة "فأخذت إذ ذاك مجالس المناظرة تعقد بين أنصار المذاهب المختلفة فتكتل حينئذ السنيون وخاضوا معركة شعواء خرجوا منها منتصرين على خصومهم"[20]

ويشير الباحث طمار بوضوح إلى أن الحرية التي مني بها الميدان الفكري من طرف أولي الأمر كان لها الأثر الواضح في نشاط قرائح أصحاب المذاهب، فقويت عقولهم واتسع نطاق الثقافة وتقلص ظل الخارجية والاعتزال لفائدة السنيين.

إلا أن المؤسف والمزري أن التاريخ لم يحفظ لنا شواهدا كثيرة تظهر حجم المناظرة القائمة بين الفرق عصرئذ مما يمكن وضعه قيد البحث والدراسة "فلم يبق منها إلا الشيئ القليل" [21] وهذا القليل مفرق في بطون كتب الدين والفقه والتصوف.

وإلى ذلك الوقت كان المذهب المالكي يجد أرضا رحبة طيعة فتسلل إلى قلوب الجزائريين بخفة وتؤدة ثم بدأت مكانته تتزعزع مع انسياب التيار الفاطمي إلى المغرب العربي بقيادة عبيد لله المهدي[22] الذي نشر تيار الاسماعيلية على نطاق واسع.

ومن هنا طفق التشيع ينازع المالكية في حصونها ولقي مقاومة شديدة من أرباب هذا المذهب فعاد الصراع الفكري إلى الواجهة من جديد يغذيه هذا التيار الحادث "فالصراع القائم بين علماء وأدباء الشيعة وزملائهم السنيّين أعان الثقافة على الازدهار فكل فرقة تدافع عن آرائها وتتفنن في أساليب إقناع الخصم فكثرت المقالات النثرية والقصائد الشعرية "

ولا نوافق طمار كثيرا في اعتبار الاضطراب الذي ساد ذلك العصر قد أثر في الحياة الأدبية بالسلب ونفند بشدة اعتبار الخصومات المذهبية المندلعة قد "اشغلت الناس عن التفرغ للأدب والفن"[23] وهو يلح على أن الأدب الأندلسي مدين في ازدهاره للبيئة الهادئة المستقرة المطمئنة وهو ما لم يتأت في أرض الجزائر.

ويمكن القول أن أطياف شتى من التيارات الدينية تسللت تباعا إلى أرض الجزائر مع اختلاف توجهاتها وأسسها الفكرية ومنطلقاتها، فقد جاء الخوارج بتيارهم المتطرف وجاء السنيون الفاتحون وقدم الفاطميون كذلك وكانوا يجدون المكان المناسب لنشر افكارهم ويلقون مقاومة من مذاهب أخرى، وقد أثر هذا الصراع في التركة الأدبية المتبقية مثلما أثر في الدين. وقد تعاقبت أيضا دول وحكومات على هذا البلد "فهذه تيمقاد وجميلة الرومانية، وهذه مهدية والمسيلة العبيدية، وهذه الجزائر والمدية وملیانة الزيرية وتلمسان الزيانية" [24]

2.انتصار للرأي والفكر في ظل الاضطهاد :

ولما قامت دولة الصنهاجيين[25] بالمغرب العربي وهي تمثل أول دولة بربرية مستقلة تحكم الجزائر بعد الفتح الإسلامي ـ ازدهر المذهب الشيعي استجابة للمعز العبيدي[26] زعيم الفاطميين بمصر لكنهم سرعان ما خذلوه وانقلبوا إلى المذهب المالكي ما من شأنه أن يفتح باب الصراع السيفي بعد أن فتح قبله الصراع الفكري. وقد تأكدت الاستجابة إلى المالكية منذ نشأة الدولة الحمادية بالجزائر وبالرغم من كل

محاولات الفاطميين في استعادة مجد المذهب الشيعي على أنقاض مذهبي السنة والخوارج، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك.

ويعزى القضاء على شأفة هذا المذهب إلى حماد بن بلكين الصنهاجي بالجزائر سنة407هـ 1017م "واستعاض بالمذهب المالكي ووقع الاقتصار عليه في سائر أنحاء مملكته من تراب الجزائر ثم أفتى به أمير القيروان المعز بن باديس 435هـ-1043م فعمت المالكية البلاد شرقا وغربا"[27]

وقد عرف الأدب في عهد الحماديين[28] ازدهار ا قل مثيله لتظافر العديد من الأسباب نجملها فيما يلي:

1-أصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة الحمادية برعاية أمراء الدولة البرابرة أنفسهم حتى زاحمت البربرية التي تقلص ظلها إلى الجبال، فلا الدروس تلقى بالبربرية ولا التآليف تكتب بها كما كان الأمر في عهد بني رستم.

2-عناية بني حماد بالكتابة والأدب والأدباء فكانت للكتابة عندهم منزلة ليس وراءها إلا منزلة أمراء الجيش.

3-ففي تلك البيئة العامرة بالأدب وإن كان أدبا محافظا متسما بسمات المدرسة المشرقية التقليدية إلا أن أصحابه برعوا فيه أيما براعة وأتوا بالجديد على كل حال.

ونلفي في هذا العصر شخصية تحدث عنها المؤرخون كثيرا هي ابن الربيب[29]عاصر ابن رشيق المسيلي واسمه الحقيقي الحسن بن محمد بن أحمد التميمي التيهرتي، كان ابن الربيب التهرتي القيرواني لغويا نحويا وعارفا بأنساب الناس حتّى اكتسب لقب «النسابة الإفريقيّ» . وكان أيضا أديبا ناثرا وشاعرا مجيدا قويّ الكلام يقول في المدح والرثاء،

وكان هذا الأديب من قطر المغرب الكبير يتواصل مع أدباء الأندلس ومن بينهم المغيرة عبد الوهاب بن حزم[30] الذي راسله برسالة شهيرة تدل على تفوقه في النثر الفني تصطرع فيها بعض الأفكار حول تقصير أدباء الأندلس وتفريطهم في حق آثارهم وفضائلهم ومآثر بلدانهم أرسلها إليه يقول في بعضها:

"فكّرت في بلادكم إذ كانت قرارة كلّ فضل ومنهل كلّ خير ونبل ومصدر كلّ طرفة ومورد كلّ تحفة . . إن بارت تجارة فإليها تجلب، وإن كسدت بضاعة ففيها تنفق، مع كثرة علمائها ووفرة أدبائها وجلالة ملوكها ومحبّتهم للعلم وأهله. . .

ثمّ هم مع ذلك في غاية التقصير ونهاية التفريط. . . فعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم كلّ امرئ منهم قائم في ظلّه لا يبرح، وراتب على كعبه لا يتزحزح. يخاف إن صنّف أن يعنّف، وإن ألّف أن يخالف ولا يؤالف. لم يتعب أحد منهم نفسا في جمع فضائل أهل بلده، ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه، ولا بلّ

قلما بمناقب كتّابه ووزرائه، ولا سوّد قرطاسا بمحاسن قضاته وعلمائه. على أنّه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه، لوجد للقول مساغا ولم تضق عليه المسالك ولم تخرج به المذاهب ولا اشتبهت عليه المصادر والموارد . ولكنّ همّ أحدهم أن يطلب شأو من تقدّمه من العلماء ليحوز قصبات السّبق بقدح ابن مقبل بكظم دغفل، ويصير شجا في حلق أبي العميثل . فإذا أدرك بغيته واخترمته منيّته دفن معه أدبه وعلمه، وانقطع خبره. . . وعلماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم احتيال الأكياس فألّفوا دواوين بقي لهم بها ذكر مجدّد طول الأبد.

ولا يترك ابن الربيب لمحدثه فجوة ينسل منها باستدراك فيبادره[31]:" إن قلت، إنه كان ذلك من علمائكم وألفوا كتبا لكنها لم تصل إلينا فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق لأنه ليس بيننا وبينكم إلا دوحة راكب أو دلجة قارب لو نفث ببلدكم مصدور أسمع ببلدنا من في القبور فضلا عمن في الدور والقصور "

وقد آخذ ابن الربيب في رسالته بعض الأدباء البارزين في البيئة الأندلسية والذين أغفلوا آدابهم وراحو يتقرون آداب المشارقة بالبحث والتنقيب، وهو ينتقد هذا التوجه الفكري المبني على الانبهار بالمنتوج المشرقي وإنكار ما عند الأندلسيين، ومن أولئك ابن عبد ربه فيقول عنه:" على أنه يلحقه بعض اللوم إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة العقد ومناكب ملوكه يتيمة سلكه، ولكنه أكثر وطوّل وأخطأ المفصل، وأطال الهز بسيف غير مصقل."[32]

هذه الرسالة فريدة في بابها ومع وصولها إلينا نشعر أن المغاربة الذين مثلوا حلقة وسطى بين مشرق العرب وأندلسهم شعروا بتهاوي الفكر والأدب العربي الأندلسي ودورانه حول نفسه مما حجم من قيمته، وأسبل عليه رداء الخمول.

ونلفي علامة آخر عاش إلى جانب ابن الربيب بالجزائر هو يوسف أبو الفضل بن النحوي[33] وتتلمذ على يد علماء أفارقة "وكان ميالا إلى النظر والاجتهاد، وكان متأثرا بآراء الغزالي ويبث كتبه أينما حل ولا سيما الإحياء" [34]

ومثلما تحولت البيئة الثقافية الأندلسية الى مصدر للنقاش كذلك أحدثت كتب مشرقية ضجة كبيرة بالمغرب الأوسط، فعارضها البعض كما عار ض فكرها وآمن بها البعض الآخر فلم يسلم من المطاردة ولا نجد كتابا لقي الرواج وحمل عليه الناس مثلما حملوا على كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي وعلى ابن النحوي الذي تبنى أفكاره وروج لها في بيئة تحجر على الفكر الحر وتطارد أنصاره بإيعاز من السلطة السياسية.

وقد قال القاضي أبو عبد الله بن علي بن حماد فيه: كان أبو الفضل في بلادنا كالغزالي في العراق علما وعملا نسخ الإحياء ثلاثين جزءا، فكان يقوم كل يوم في رمضان يقرأ جزءا قائلا وددت أني لم أنظر في عمري سواه، أحب الغزالي وآمن بأفكاره وكتبه ودافع عنها من السلاطين الذين أمروا بحرقها ومن المعارضين، أقرأ بسجلماسة "الأصلين" فقال ابن بسام أحد رؤساء البلد: يريد هذا أن يدخل علينا علوما لا

نتعارفها فأمر بطرده من المسجد فقال: أمت العلم أماتك الله سجل لنا ابن الزيات الذي ترجم لابن النحوي أن الله استجاب دعوته حين مرت جماعة من قبيلة ملوانة الصنهاجية في اليوم التالي لطرده، وقتلت ابن بسام بالرماح في نفس المكان الذي دعا عليه فيه.

و جرى له مثله بفاس مع قاضيها ابن دبوس فدعا عليه فأصابته أكلة في رأسه فوصلت لحلقه فمات وقطع ليلة خروجه في صبحها بسجدة قائلا فيها اللهم عليك بابن دبوس فأصبح ميتا.

وقد جاء في وقت لم يتشرب فيه المغرب الأوسط المذهب الأشعري في علم الكلام أو العناية بأصول الفقه،فكان الطابع الغالب لدى فقهاء المغربيين الأوسط والأقصى في عهد المرابطين هو النفور من علم الكلام، وأصول الفقه. ولقد لقي ابن النحوي المتاعب والمقاومة من الفقهاء والرؤساء زمن استقراره بالمغرب الأقصى عندما أقرأ علم الكلام، وعلم أصول الفقه حتى قال:

أصبحت في من له دين بلا أدب ومن له أدب خال من الدين

أصبحت فيهم غريب الشكل منفردا كبيت حسان في ديوان سحنون

وقد لقي العنت بسبب أفكاره الاجتهادية وتفضيله لكتاب الإحياء على سائر الكتب التي قرأها حتى قال عنه ابن بسام "هذا يريد أن يدخل علوما لا نعرفها" هكذا كان التنكر لكل جديد سواءا في الدين أو في الأدب ففي الدين رفضت الآراء التنويرية الجديدة، وكانت المحافظة والنزعة التقليدية سمة غالبة، وفي الأدب كما رأينا كان الإتجاه لا يخرج عما رسمه المشارقة، وكان الاعتزاز بتلك الآداب سمة غالبة منعت من الإبداع، وهي حقيقة تحدث عنها ابن الربيب سابقا.

وفي أثناء وجوده بمدينة فاس صدر الأمر من السلطة المرابطية في عهد علي بن يوسف بن تاشفين إلى أهلها بالتحريج (التضييق) على كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي، وأن يحلف الناس بالإيمان المغلظة أن الإحياء ليس عندهم. ولم تكن مدينة فاس وحدها التي شملها هذا القرار، بل إن الأمر يتعلق بقضية سياسية عامة تبنتها الدولة المرابطية بهدف محاصرة الاتجاه الصوفي بالغرب الإسلامي والتضييق عليه، وفرض نمط ثقافي وفكري محدد على الناس.

لقد أثار كتاب إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي بعد وصوله إلى الأندلس والمغرب مناقشات متعددة في الأوساط الثقافية، لما تضمنه من إشكالات وطروحات جديدة. فقامت جماعة من الفقهاء الأندلسيين يتزعمهم قاضي الجماعة بقرطبة أبو عبد الله محمد بن علي بن حمدين التغلبي (439 - 508هـ) بإصدار فتوى تقضي بمنع الإحياء من التداول بين الناس وملاحقة ومطاردة من وجد عنده. وسرعان ما أعقب هذه الفتوى التي تبنتها السلطة المرابطية إجراءا سياسيا خطير ا أقدم عليه الأمير

المرابطي علي بن يوسف بإيعاز من هؤلاء الفقهاء، وهو إحراق كتاب الإحياء في بعض مدن الأندلس والمغرب.

وقد انقسم خصوم الغزالي في الغرب الإسلامي إلى طائفتين: فأما الأولى فهي التي تزعمت فتنة الإحراق وكان على رأسها الأندلسيان ابن حمدي قاضي الجماعة بقرطبة ومالك بن وهيب (ت 525ه) وزير علي بن يوسف وقاضي الجماعة بمراكش. وأما الطائفة الثانية فقد اكتفت بالرد على الغزالي ردًا علميًا دون أن تتورط فيما ذهبت إليه الطائفة الأولى. ومن هؤلاء أبو بكر محمد بن الوليد المعروف بالطرطوشي (451 - 520ه)، الذي وضع كتابًا كبيرًا عارض به كتاب الإحياء، قال عنه الضبي، إنه رأى منه قطعة يسيرة. والفقيه المالكي الذائع الصيت أبو بكر بن العربي الذي رد عليه في كتابه سراج المريدين. ومعاصره الفقيه المالكي المشهور الإمام أبو عبد الله محمد بن علي المعروف بالمازري (ت 536ه)، الذي ألف كتابًا في الرد على الغزالي سماه "كتاب الكشف والإنباء عن المترجم بالإحياء".[35]

وتصادفنا في هذا الصدد مواقف ابن النحوي التي دفعت به للمحاججة والمنافحة عن آرائه الفكرية حتى وإن كان التيار العام يأباها ويقمعها، فقد دافع ابن النحوي عن الغزالي وشهّر بمن أفتى بتحريق كتبه قائلا:

أبو حامد أحيا من الدين علمه وجدد منه ما تقادم من عهـد

ووفقه الرحمن فيما أتى بـه وألهمه في ما أراد إلى الرشـد

ففصلها تفصيلها فأتى بهـا فجاءت كأمثال النجوم التي تهدي

وهذه الأبيات على بساطة نسجها تظهر مدى اصطراع الأفكار عصرئذ على اختلاف التيارات الدينية والميول المذهبية، فهذا يقدس الاجتهاد والعقل فيتأثر بالغزالي وينافح عنه، وآخر يرى النقل والحرص على المذهب المالكي أفضل صورة للتعاطي مع الدين الاسلامي.

وحين عاد إلى القلعة بالمسيلة، باشر مهمة التدريس بكل حرية كما كان يفعل فيها من قبل، ولقي قدرًا واحترامًا لا من أهلها فحسب، بل من أولي الأمر فيها أيضًا. وهنا تجدر الإشارة إلى ما كانت تنعم به مدن المغرب الأوسط من حرية ثقافية في ظل بني حماد، على خلاف حواضر المغرب الأقصى التي كانت حياتها الثقافية خاضعة لتأثيرات وتوجهات الفقهاء بتحالف مع السلطة السياسية الواقعة تحت نفوذهم. وفيما تعرض له ابن النحوي في سجلماسة وفاس، وما لقيه في قلعة بني حماد ما يكفي للتدليل على هذه المقارنة. كما يكشف الخوف الذي نال الفقهاء الذين اشتغلوا بالدنيا وبمجاملة الحاكم، ما جعلهم يخشون كتاب الإحياء لأنه فضح صفات هؤلاء الفقهاء.

والملاحظ من خلال دراستنا للصدامات القديمة التي انقرعت بين الأقلام أن أصحابها عمدوا إلى القريض بدل النثر، لأن النثر بفعل الحرق والاضطراب، وطول الزمن ضاع الكثير منه لأنه أليق بالورق

والشعر أعلق بالذهن، وهناك أمر آخر يخص المناظرة بعينها وهي أنها خطابية ارتجالية ابنة المجالس والمحافل مما يجعل أمر تسجيلها متعذرا فهي تكسب قيمتها في الراهن عدا تلك المناظرات الشهيرة أو تلك التي كانت تجري تحت سمع الحاكم فكانت تسجل قطعا.

وقد عاشت الدولة الحمادية ازدهاراً وتطوراً لم يدم طويلا لتظافر العديد من الأسباب التي أودت بالحضارة الحمادية على رأسها "كثرة الصراعات الداخلية المستحكمة بين أفراد الأسرة الحاكمة بعد أن اختفى الأمراء الأقوياء الأوائل أمثال حماد والناصر وبسبب الوقيعة بين عناصر الدولة كالوزراء والحجاب، ومن ذلك الخلاف الذي نشب بين الوزير بن حمدون وآخر الأمراء الحماديين يحي بن العزيز وأدى إلى وقوع الإمارة في يد عبد المؤمن[36] بطل الدولة الموحدية عام 1153 وذلك بتآمر من الوزير ميمون بن حمدون"[37]

فقدت دعوة المرابطين الإصلاحية بعدها التجديدي رغم أنها قامت على أساس الإصلاح الديني والتمسك بعقيدة أهل السنة والفقه المالكي ـ لعدم تفتح علماءها وفقهاءها على مختلف النظريات والتيارات الفكرية التي ظهرت في المشرق الاسلامي ولا سيما آراء المعتزلة والأشاعرة، ومنعوا العامة من الاشتغال بعلم الكلام مما أدى الى الجمود والتقليد، ثم ظهرت في القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي دعوة المهدي ابن تومرت مناهضة للمرابطين مستمدة أصولها من آراء المعتزلة في نفي التجسيم واعتماد ظاهر الكتاب والحديث متهما المالكيين بالانقطاع لدراسة كتب الفروع، وفي المجال السياسي أخذ بعقيدة الشيعة الاسماعيلية وادعى العصمة، ففرضت دولة الموحدين نفسها تحت لواء عبد المؤمن بن علي بعد وفاه ابن تومرت.[38]

عرفت الحياة الفكرية الجزائرية في هذه الحقبة انتقالا من فترة الجمود والتقليد الى عهد الانفتاح والتجديد بسبب الاشتغال بالحكمة والمنطق والحوار الفكري والتفتح على نظريات المعتزلة والأشاعرة، وقد ظهر في هذه الحقبة أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي الذي لقب بأبي حامد الصغير لكونه سلك مذهبه واقتفى أثره في التأليف عندما أصدر كتاب النبراس في الرد على من أنكر القياس وكتاب التفكير فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات، وإنزاله منزلة الغزالي تعني أيضا سلوك علماء الجزائر في تلك الحقبة مسلكا وسطا بين العقل والنقل وبين التصوف والاعتزال.

وقد سعت الدولة الفاطمية بالمغرب قبل ذلك إلى فرض المذهب الشيعي على السكان دون استساغة ولم يرحب به هؤلاء عن ايمان وعقيدة "إنما تظاهروا فقط بقبوله عندما كانت الدولة قوية مرهوبة الجانب في أول عهدها، وبمجرد أن بدأت عوامل الانحلال تنهشها، أخذ السكان يتبرأون من هذا المذهب الشيعي، ويعودون إلى المذهب السني المالكي بزعامة الأمراء المحليين." [39]

ولم يكن أمراء الموحدين على طينة واحدة فمنهم من اضطهد أهل الرأي مثلما شاع عن الخليفة الموحدي يعقوب المنصور الذي قاد حملة اضطهاد ضد المشتغلين بالفلسفة على رأسهم ابن رشد وجماعته وفيهم الآبلي[40] لكن سرعان ما عادت الحرية الفكرية بعد أن عفا المنصور عن هؤلاء الفلاسفة "ورضي عن تلك الجماعة المضطهدة، وأخذ يرغّب في الاشتغال بالحكمة والوقوف على مقالات الفلاسفة" هذه الحادثة التاريخية تظهر مدى احترام الأمراء المغاربة والجزائريين لحرية الفكر وإن كانوا في بعض الأحيان -نتيجة الوشاة أو سوء الفهم والظن- يلجئون إلى اضطهاد الأفكار.

وقد برز خلال هذه الحقبة أيضا إسم العالم أبي عبد الله محمدبن ابراهيم الآبلي التلمساني الذي اعتبره ابن مرزوق شيخ المغرب في العلوم العقلية كما أثنى عليه ابن خلدون والمقري.

وقد وصل الأمر بالعالم الآبلي إلى التشكيك في جدوى التأليف واعتباره وسيلة اتكالية تطيح بقدر الأدب بدل أن ترفعه وهي فكرة مخالفة تماما لما كان يعتقده أدباء القطرين المغربي والمشرقي من أن العلم يرتفع بالتدوين لا بالحفظ فقط وطول العهد وتشابك المعارف مع مرور الوقت يستدعي تدوينه، فالقرآن ذاته خيف عليه بعد موت القراء فدوّن في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان.

فقد قال الآبلي:"إنما أفسد العلم كثرة التأليف، وأذهبه بنيان المدارس" ويتراء لنا من خلال هذه الكلمات فكرة صارعة لعصر وجيل بل ولحضارة، إن العلامة يسبح ضد تيار قد استشرى خطره وصار أكثر من ضرورة هو التدريس والتأليف ولا يمكن بأي حال من الأحوال الاستغناء عنهما ولكن نظرة العالم تحيل إلى حقيقة هامة من كون التآليف في نظره تجعل العلوم سهلة التناول فتضعف الرغبة فيها، ويقل التحصيل، أليس العبدري على حق في قوله هذا ونحن نرى المدارس تخرج الألاف المؤلفة من أصحاب الشهادات والعلم في تراجع والمستوى في اضمحلال، ثم ألسنا في عصر كثر فيه التأليف وصار الكتاب يكدس تكديسا، ومع ذلك تتراجع الإمكانات العلمية، والحق يقال إن نظرة الآبلي نظرة استشرافية صوفية وتنطبق إلى حد بعيد على عصرنا، والعجب أنه لم يخلف آثارا علمية مكتوبة.

وقد عرف الجزائريون حركة التصوف الممتدة في العالم العربي الإسلامي منذ القرن الثاني للهجرة واصطدم التصوف أول الأمر بالمذهب المالكي وبأفكار سنية متوثقة عند الجزائريين وبحكام صنهاجيين أشداء رفضوا خزعبلاتهم "فالعلماء أنكروا عليهم تعاليمهم وكفّروهم، وحرّم الصنهاجيون مذهبهم وأمروا الناس بمذهب السنة" وعند مجيء الدولة الموحدية ازدهرت الحركة الصوفية برعاية البلاط "فضعف سلطانهم وعلت كلمة الصوفية."[41]. وفي هذه الحقبة ظهر المتصوف أبو مدين شعيب فخالف أستاذه في الزهد والعلم "ابن حرزهم" التي أقر بما قاله الفقهاء بتحريم قراءة الإحياء ومنع تداوله بين الناس وآمن بأفكار الغزالي وبالإحياء، وبمجرد أن اختفى علي بن يوسف وانهارت دولة المرابطين وقامت على أنقاضها دولة الموحدين عاد كتاب إحياء علوم الدين للغزالي الى الظهور والتداول لدى كل الأسر، وفي كل ربوع بلاد المغرب والأندلس، ومن يومئذ شاعت مقولة "بع اللحية واشتر الاحياء" وما تزال شائعة حتى اليوم بالمغرب الأقصى على ما قيل"[42]

3.صراع الفكر يقود لحرب اليهود:

ويبدو أن الصراع الفكري كان ظاهرة تتجلى وتنطوي بين حقبة وأخرى لأسباب كثيرة فإن احتدم في يوم من الأيام بين التصوف البدعي وأهل السنة فقد احتدم أحيانا أخرى بين المعتزلة والسنيين وكأن هؤلاء قد كتب لهم التاريخ أن يصارعوا على الدوام الطوائف والمذاهب الداخلة من بيئة إلى أخرى، وقد اشتعلت حمى هذا الصراع الفكري بين الطائفتين مع مقدم الأمراء الزيانيين ثم المرينيين وتميزت دولة بنو مرين عن بقية الدول التي سبقتها في حكم المغرب كونها لم تصل إلى الحكم تحت شعار فكرة دينية كما فعل المرابطون والموحدون ، فقد اعتمد وا على قوتهم العددية وتنظيماتهم القبلية. مما أعطى بعد ذلك هامشاً كبيراً للإبداع والتطور الفكري والحضاري، فأطلق بنو مرين للناس حرية الاعتقاد والتمذهب، فعاد المذهب المالكي إلى الظهور قوياً كما كان أيام المرابطين، بعد أن نبذ وحارب الموحدون الفروع والتقليد، وقرَّب المرينيون الأشراف الأدارسة وأعادوا بناء الأضرحة وسنوا الاحتفالات النبوية المهيبة. وقربوا العنصر اليهودي الفارّ من الأندلس.

ومن بين الشخصيات الأدبية التي برزت في هذه الفترة-أواسط القرن الثامن الهجري- الخطيب ابن مرزوق التلمساني[43] وقد كان أستاذا للسان الدين بن خطيب وقد تصدى للرد على المعتزلة ودعواهم في التعطيل.

فقد سمع ابن مرزوق مرة كلام الزمخشري في كشافه يعرض بأهل السنة والجماعة وينصر مذهب المعتزلة:

لجماعة سمو هواهم سنــة وأراهم حمر ا لعمري موكفه

قد شبهوه بخلقه وتخوفـوا شنع الورى فتستروا بالبلكفه

"وهو يقول إن جماعة سمت هواها الذي تعتنقه سنة، وهم حمر ،عليها وكفها، أو براذعها إذ شبهوا الله بخلقه، فقالوا إنه يرى متسترين بالبلكفه أو بقولهم إنه يرى بلا كيفية حتى ينفوا عنه التشبيه بالآدميين" [44]

فرد عليه ابن مرزوق بقوله:

وجماعة عرفت لعمري بالسفـه وتمسكت بضلال أهل الفلسـفه

عدلت على النهج القويم فلقبـت عدلية وعدولها من معرفـه

ضلت وقالت لن يرى رب الـورى يوم الجزاء فألزمت نفي الصفه

هذا وكم من زلة وكـم من ذهب ذهبت به متلفــه

وكذاك أسلمت الأمر لنفســها هيهات تنقذ نفسها من متلفـه

كيف السبيل لصرفها عن غـيها والعدل يمنع صرفها والمعرفـه

وابن مرزوق يرمي المعتزلة بالسفه، وأنهم ضلوا ضلال الفلاسفة الملحدين، إذ عدلوا عن النهج القويم وسموا أنفسهم عدلية، لأن من مبادئهم وجوب العدل على الله جل شأنه، ويقول إنهم ظلوا حينما نفوا رؤية الله يوم القيامة بينما أثبتها أهل السنة، وقالوا إنها رؤية بلا كيفية، وينعى على المعتزلة قولهم بنفي الصفة عن الله، وقولهم إن صفته هي عين ذاته، ويستبعد أن ينقذ المعتزلة أنفسهم من تلف العقيدة، ويتمنى لوجد طريقا أو سبيلا لهداهم.[45]

وهذا دليل على أن الجزائر،و غير الجزائر من البلاد المغربية تعتنق مذهب الأشعري غالبا

حتى بلغ من تغلغل عقيدته في نفوسهم أن ترى ابن مرزوق الخطيب الجزائري يغضب حينما يسمع هجاء الزمخشري في كشافه لأهل السنة.

ولما جاء عصر الأتراك بالجزائر الذين لقبهم الجاحظ بأعراب العجم ركدت الحياة الثقافية واضمحل بريقها الذي عرفت به من قبل زمن الرستميين والموحدين والمرينين ولهذا غلب على عهدهم الجفاف الفكري، فكيف لنا أن نجد تراثا أدبيا ضخما بله أن نعثر على مواقف فيها صراع فكري وتدافع معرفي من أجل نصرة موقف معين وقد صرح عبد الرحمن الجيلالي جهارا أن الجزائر لم تعرف الصراع المذهبي والجدل الديني "بين أهل السنة والمعتزلة والشيعة وغيرها من الملل والنحل والطوائف والفرق الأخرى في البلاد الشرقية، كل ذلك لم تعرفه الجزائر في تاريخها الاسلامي" [46]وتكفي النماذج السابقة للتطويح بهذه الفكرة إلى حين.

والسبب في غياب الحركة الأدبية استغلال الأتراك لطيبة الجزائري فتعاطف الإنسان الجزائري مع كل إخوته في العقيدة جعله يمكّن الأتراك من كل وطنه وجعله يتخذ منهم قواده وزعمائه وولاة أموره وظل وفيا لهم حفظا منه للجميل وشعورا بالوحدة الوطنية التي تربطه بهم "ورغم سلوك هؤلاء على الأخص في نهاية حكمهم في الجزائر المتميز باضطهاد السكان واغتصاب خيرات البلد عنوة وضربهم صفحا عن كل ما يؤدي بها إلى التطور والرقي، ورغم كل ذلك فضّل الجزائريون الصمت والصبر في انتظار الوقت المناسب لإصلاح ذلك "ولكن مع مرور الوقت اختفت تدرجيا مجالس السمر والتسلية وتقهقرت المنتديات الأدبية والفكرية" [47]

وبالرغم من هذا الجمود العام بقيت بعض الحواضر العتيدة ترعى الثقافة وتصون العلم، ولم تطلها يد الإهمال والتتريك مثل بجاية وتلمسان وقسنطينة ومازونة، ولم تزل محافظة على ما ورثته من التراث الفكري.

وعندما نبلغ القرن التاسع الهجري نجد دائرة الفكر والحوار قد انكمشت ولكن روح الجدل لم تنظفء ونرى العالم يقطع البلدان والأمصار للدفاع عن فكره أمام العلماء وفي بلاط السلاطين فلا يخشى لومة لائم مثلما حدث مع محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني[48] الذي اعتبر خاتمة المحققين في العهد المريني، فقد عارض المغيلي موقف السيوطي من المنطق ومعارضته لهذا المجال العلمي التي وصلت بالسيوطي إلى حد تحريمه فقال له:

سمعت بأمر ما سمعت بمثله وكل حديث حكمه حكم أصله
أيمكن أن المرء في العلم حجة وينهى عن الفرقان في بعض قوله
هل المنطق المعني إلا عبارة عن الحق أو تحقيقه حين جهله
معانيه في كل الكلام وهل ترى دليلا صحيحا لا يرد لشكله
أريني هداك الله منه قضية على غير هذا تنفها عن محله
ودع عنك أبداه كفور وذمه رجال وإن أثبت صحة نقله
خذ الحق حتى من كفور ولا تقم دليلا على شخص بمذهب مثله
عرفناهم بالحق لا بالعكس فاستبن به لا بهم هم هداة لأجله
لئن صح عنهم ما ذكرت فكم هم وكم عالم بالشرع باح بفضله

فكان مما رد به السيوطي:

حمدت إله العرش شكرا لفضله وأهدي صلاة للنبي وأهله
عجبت لنظم ما سمعت بمثله أتاني من حبر أقر بنبله
تعجب مني حين ألفت مبدعا كتابا جموعا فيه جم بنقله
أقرر فيه النهي عن علم منطق وما قاله الأعلام من ذم شكله
وسماه بالفرقان يا ليت لم يقل فذا وصف قرآن كريم لفضله
وقال به فيها يقرر رأيه مقالا عجيبا نائيا عن محله

ونلفي في هذه الأبيات أن طريقة اصطراع الأفكار لدى أصحاب الألباب الراجحة مبنية على احترام رأي الآخر والدفاع عن الفكرة الأصوب دون تعنيف أو مخاصمة أو إعنات، بل ببسط الدليل والبرهان، ولكم أن تتصوروا وقع عبارة "أتاني من حبر أقرّ بنبله" على المغيلي فهي قد أثلجت صدره في الرد بدل تلك الردود الممجوجة التي لا تحترم الآخر،

كما يكشف هذا الدليل الشعري على مكانة حرية العقل والتفكير لدى المثقف الجزائري ودفاعه عنها من بعض من اعتبروا علم الكلام والمنطق بدعة من أكبر البدع خاصة "من وجهة نظر رجال الحديث الذين شددوا في النكير عليه وعلى رجاله" [(49)]

وله موقف فكر ي آخر عارض فيه ازدياد النفود المادي والمعنوي لليهود بالصحراء وبتلمسان فحاجج العلماء من أجل اقناعهم لقمع هؤلاء وتلافي خطرهم.

فكان ممن قد أنكروا على اليهود القاطنين في المنطقة سلوكهم ومخالفتهم للقوانين، وللتراتيب التي حددها لهم الفقهاء المسلمون على مر العصور بعد أن شيد أولئك السكان من اليهود كنيسة جديدة لهم في "تمنطيط". وقد أثار هذا الخبر ثائرة المسلمين، الذين اعتبروا تشييد معبد جديد، مخالفة صريحة للشريعة التي تسمح للذميين بإصلاح معابدهم القديمة فقط، وتحظر عليهم بناء معابد جديدة، غير أن بعض العلماء المحليين، وعلى رأسهم قاضي المدينة، خالفوا أولئك النفر من المسلمين وقالوا: إن اليهود ذميون، لهم ما لأهل الذمة من الحقوق المنصوص عليها في كتب الفقه. وقد احتج كل فريق بآيات قرآنية كريمة وبأحاديث نبوية شريفة، وبأقوال السلف من الأئمة والفقهاء، غير أن كلا الفريقين لم يقو على فرض آرائه، وعلى استمالة عامة الناس إليه. وكان في مقدمة الناقمين على اليهود، العالم محمد بن عبد الكريم المغيلي. وقد اشتهر هذا الفقيه بنشاطه، وبحيويته في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وفي نشر تعاليم الإسلام ومحاربة البدع والخرافات خاصة ببلاد الزنوج – كما سنرى – حيث اصدر فتوى أكد من خلالها: " أن سيطرة اليهود على عموم نواحي الحياة في تلك الديار، وبخاصة النواحي الاقتصادية، يتنافى مع مبدأ الذلة والصغار التي اشترطها الإسلام مقابل حمايتهم وعيشهم بين ظهراني المسلمين، وعليه فإن هذا التفوق لليهود وإمساكهم بزمام السلطة من خلال سيطرتهم على التجارة، يستوجب - في نظر هذا العالم - محاربتهم وهدم كنائسهم وكسر شوكتهم ليعودوا إلى الذل والصغار". وقد أثارت هذه الفتوى، من قبل الإمام المغيلي، ردود فعل كثيرة في أوساط معاصريه من العلماء بين مؤيد ومعارض. ولما حمي الوطيس بين الفريق المناصر لمحمد بن عبد الكريم المغيلي، والفريق المعارض له، واشتد الخلاف بين المسلمين، راسل كلا الفريقين أكبر علماء العصر في تلمسان، وفي فاس، وفي تونس، وكانت المدن الثلاث العواصم السياسية، والدينية، والثقافية للأجزاء الثلاثة من المغرب الإسلامي الكبير يستفتيانهم في القضية، وكان كل فريق يأمل تأييد موقفه ضد موقف الفريق الآخر المتهم بمخالفة تعاليم الشريعة.

وقد أورد الإمام الفقيه أحمد الونشريسي في موسوعته الفقهية المعيار المعرب، مختلف الفتاوى التي تلقاها الفريقان، فكان ممن عارضوا المغيلي علماء من تلمسان وفاس، وعلى رأسهم الفقيه عبد الرحمن بن يحيى بن محمد بن صالح العصنوني المعروف بشرحه على التلمسانية، وقاضي توات أبو محمد عبد الله بن أبي بكر الاسنوني.

أما العلماء المؤيدين فقد كان على رأسهم الأئمة الأعلام محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي الجزائري مؤلف الكتاب في ضبط القرآن الكريم "الطراز على ضبط الخراز"، ومحمد بن يوسف السنوسي الجزائري، أبو عبد الله التلمساني الحسني الجزائري عالم تلمسان وصالحها، وأحمد بن محمد بن زكري المانوي أبو العباس المغراوي التلمساني الجزائري مفتي تلمسان في زمنه.

ويقول المؤرخون: "... إنه فور وصول جواب هؤلاء العلماء لواحة تمنطيط، حمل الإمام المغيلي وأنصاره السلاح، وانقضوا على كنائس اليهود، فهدموها دون تأخير".

وارتحل المغيلي الى فاس من أجل مناظرة العلماء هناك في هذه القضية وعندما أفحمهم أوغروا عليه صدر سلطان فاس "وصوروا له المغيلي على أنه صاحب طموح أو طموحات سياسية وأن عمله بتوات يخفي من ورائه أهدافا سياسية"[50]

وكان الإمام المغيلي بجانب ثقافته الدينية الواسعة وقيامه بأمور الوعظ والإرشاد، ومعرفته بأمور السياسة الشرعية يقدر رجال الطرق الصوفية خاصة منهم أولائك الذين يبتعدون عن الدروشة والبدع كحال الطريقة القادرية. فكان له دور مهم في التعريف بالطريقة القادرية التي كان يحترم شيوخها ومنهم شيخه المفسر الإمام الكبير والعالم الجليل عبد الرحمان الثعالبي.

ومن خلال ما سبق نخلص إلى مايلي:

1.غياب التأليف لدى المتكلمين والمشتغلين بالجدل مما حجم من نشاط المناظرة وعجل بانطفاءها وخير دليل ابن النحوي فرغم ما خاضه من معارك فكرية ومواجهات ثقافية، وشهرته في الأوساط الصوفية، وتضلعه من علمي أصول الدين والفقه وعلم الكلام، إلا أنه لم يهتم بالتأليف، وكذلك الآبلي الذي لم يكتف بعدم التأليف بل وقف منه موقفا سلبيا.

2. كانت الرسائل الإخوانية والديوانية تمثل مصدرا بديلا لغياب جنس مناظرة مستقل بذاته، فحمل هذا الجنس النثري على عاتقه حمولة المناظرة والمجادلة بين عالم وفقيه وبين حاكم وخارج وبين شاعر وشاعر.

3 ـ تغلفت المناظرات بطابع ديني فقهي،لأنه كان المدار الأكبر للنقاش والاهتمام، وحوله تحلقت مجمل الأفكار عدا بعض طروحات المتكلمين والمعتزلين فقد تطارحوا في قضايا سياسية وفكرية محضة.

5. مثلت بعض الحواضر كبجاية وتيهرت والقلعة منابرا للفكر والحوار الحضاري حتى سميت الدولة الرستمية بعراق المغرب، وعرفت بيئة المغرب الأوسط أعلاما نافحوا عن حرية الرأي والمنطق ومنهم المسيلي الملقب بأبي حامد الصغير وابن النحوي الذي دافع بشراسة عن فكر الغزالي حتى كاد يلقى حتفه في سبيل الدفاع عنه والمغيلي الذي حارب اليهود مثلما جابه على طريقة ابن تيمية البدع والخرافات.

6. وجود المذهب المالكي في المغرب الأوسط لم يكن يعني اضطهاد بقية الحركات أو موت مذاهب أخرى فقد بقيت نزعة التشيع والاباضية وحركة الاعتزال كما ترسخت أقدام مذاهب دينية أخرى مثل التصوف الذي راح يزداد خطرا منذ القرن السادس للهجرة وبدعم من الموحدين والمرنيين.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الصغير المالكي أخبار الأئمة الرستميين تح،د محمد ناصر،دار الغرب الاسلامي،بيروت 1986
- محمد طمار،تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر،2006.
- سليمان باشا الباروني : الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية: دار الحكمة تحقيق محمد علي صليبي ط1 الفصل السادس.
- أبو العباس الدرجيني: طبقات المشائخ،تح ابراهيم طلاي،ج2 مطبعة البعث قسنطينة
- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ط 1 دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر1983
- حسن ابراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة 1958
- ابن بسام:الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة،تح:احسان عباس دط، ج1،بيروت 1979.
- د.يحي بوعزيز :موضوعات وقضايا في تاريخ الجزائر والعرب.ج1 .دار الهدى عين مليلية 2009.
- يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة،ج2
- العربي دحو: إطلالات مقاربة للأدب الجزائري الحديث دار الهدى عين مليلة الجزائر 2011

- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، عصر الدويلات والإمارات،دار المعارف، مصر ط1
- محمد عبد الغني الشيخ: النثر الفني في العصر العباسي الأول، اتجاهاته وتطوره،ط1ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر1983

الهوامش:

(1) عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية الاباضية بتيارت من سنة 776م-787

(2)ابن الصغير المالكي صاحب كتاب أخبار الأئمة الرستيمين اشتهر بمناظرته وانصافه وذكر في الكتاب مناظرة جرت بين الاباضية والمعتزلة على ضفة نهر مينة

(3) ابن الصغير المالكي أخبار الأئمة الرستميين : تح،د محمد ناصر،دار الغرب الاسلامي،بيروت 1986.

(4)-ينظر محمد طمار،تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر،2006 ص:72

(5) المرجع نفسه،ص:73

(6)ابن الصغير الرستمي أخبار الأئمة الرستميين القرن الثالث الهجري تحقيق تعليق:محمد ناصر،إبراهيم تحاز،دار الغرب الاسلامي 1985،ط1،ص:82

(7)المصدر نفسه، ص27

(8)سورة الطلاق آية 4

(9)ابن صغير 106

(10)الامام الثالث للرستميين وحفيد مؤسس الدولة الرستمية كان عهده أرقى عصور الدولة ثقافةً وفكراً،ينظر أخبار الأئمة الرستميين

(11)من علماء الدولة الرستمية لقبه أفلح بالنفات لأنه كان ينفث بدعته في الناس، وقد تصدى لأفكاره علماء جبل نفوسة ينظر مختصر تاريخ الاباضية الباروني سليمان /ص:42-43

(12)ينظر سليمان باشا الباروني : الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية: دار الحكمة تحقيق محمد علي صليبي ط1 الفصل السادس، ص 251

(13) المصدر نفسه 252

(14) المصدر نفسه253

(15)من مواليد القرن 6هـ قال عنه الشماخي: «كان إماما في العلوم لاسيما في الكلام» استطاع بمنهجه في الحوار والإقناع إعادة أهل الحامَّة إلى المذهب، بعد أن تولَّوا عنه.

(16) أبو العباس الدرجيني: طبقات المشائخ،تح ابراهيم طلاي،ج2 مطبعة البعث قسنطينة،ص:483

(17)بكر بن حماد شاعر المغرب العربي في العهد الرستمي ولد 200هـ/ت296هـ

(18)دعبل الخزاعي شاعر متشيع 148هـ/220هـ *عمران بن حطان خارجي كان على مذهب السنة وارتد خارجيا بعد ان فشل في جعل زوجته سنية ت84هـ

(19)الأغالبة 800م/909م سلالة عربية من بني تميم حكمت المغرب العربي شرق الجزائر تونس إلى غرب لبيا والأجزاء الجنوب شرقية من أوروبا

(20)محمد طمار:تاريخ الأدب الجزائري،ص:87

(21)المرجع السابق:ص90/91

(22)عبد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية والامام الحادي عشر للشيعة الاسماعيلية ولد 873م/ت934م أسس الدولة الشيعية الوحيدة التي حكمت عموم المسلمين،ينظر حسن ابراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة 1958.

(23)ينظر محمد طمار،تاريخ الأدب الجزائري ص109.

(24)عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ط 1 دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر1983،ص 519-520.

(25)صنهاجة: بدأت هذه الامارة بعد تولية الفاطميين أميرا على إفريقيا من أصل أمازيغي هو بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي.

(26)المعز العبيدي رابع الخلفاء الفاطميين في إفريقيا وأولهم بمصر، أخذ مصر من العباسيين على يد قائده جوهر الصقلي وكانت مجالسه خصبة بالمناقشات الفكرية والدينية.

(27) عبد الرحمن الجيلالي/ تاريخ الجزائر العام،ص512.

(28)الحماديون: سلالة أمازيغية حكمت الجزائر ما بين 1152/1007م أسس دولتهم حماد بن بلكين

(29)ابن الربيب: من شعراء القيروان في القرن الخامس ولد 309هـ تولّى ابن الربيب القضاء في تاهرت حينا فصار يعرف بالقاضي التاهرتيّ أيضا. سئل عبد الكريم النهشليّ يوما عن أشعر أهل بلده فقال: أنا ثمّ ابن الربيب. وكانت وفاته في القيروان سنة 430 هـ

(30)المغيرة عبد الوهاب بن حزم: الوزير الكاتب من المقدمين في الادب والشعر والبلاغة، ابن عم الفقيه ابن حزم الأندلسي ت456

(31)ينظر ابن بسام:الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة،تح:احسان عباس دط، ج1،بيروت 1979، ص:111

(32)محمد طمار:تاريخ الجزائر الأدبي،ص:140.

(33)يوسف أبو الفضل النحوي: ناظم المنفرجه عالم جليل من قلعة بني حماد ت513هـ عن 80سنة. قال عنه الغبريني في "عنوان الدارية": كان من العلماء المسلمين وعلى السنن الصالحين، مجاب الدعوة حاضرا مع الله في غالب أمره له اعتقاد تام بأحياء الغزالي دخل قاضي الجماعة يوما في الجامع وهو يقرر للطلبة علم الكلام فسأل القاضي عن الحلقة، فأعلمه فأمر بإبطال الدرس فقال أبو الفضل: كما تسبب في إهانة العلم فأرنا فيه العلامة، وخرج فتبعه ولد القاضي، وله اعتقاد في أبي الفضل فقال له: ارجع لوالدك لتوريه، فرجع فوجد أباه قتل صبرا، قتله بعض أعدائه ويذكر أن أبا الفضل ما دعا قط إلا استجيب وهو ناظم: "اشتدى أزمة تنفرجي"

(34)ينظر ابن بسام:الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة،ج1،ص:119.

(35) مقال لـ: د.راغب السرجاني أبو الفضل ابن النحوي على موقع : http://islamstory.com/ar/artical/3407831

(36)عبد المؤمن بن علي: الكومي ولد س487هـ/ت558هـ الخليفة المؤسس لدولة الموحدين حكم شمال افريقيا أكثر من ثلاثة عقود

(37)" د.يحي بوعزيز :موضوعات وقضايا في تاريخ الجزائر والعرب.ج1 .دار الهدى عين مليلية 2009.ص:44.

(38)عبد الحميد حاجيات: ملاحظات حول تطور الحياة الفكرية بالجزائر في عهد الموحدين الحوار المتوسطي مارس 2017

(39) د.يحي بوعزيز :موضوعات وقضايا في تاريخ الجزائر والعرب.ج1 ،ص:37

(40)محمد بن ابراهيم الآبلي التلمساني من أهل العلوم العقلية ولد بتلمسان سنة 681 هـ توفي سنة 757 هـ عالم درس بتونس وكان شيخا لابن خلدون فقال أنه درس عليه العلوم العقلية والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية أما ذاك الحاكم فهو أبو يوسف يعقوب ابن يوسف المنصور ثالث الخلفاء الموحدين بالمغرب توفي سنة 1199 م

(41)عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائرالعام ج 2 ص 276-277

(42) يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة،ج2،ص:15

(43)ابن مرزوق التلمساني 710هـ/ت781هـ أديب وكاتب وخطيب في العهد المريني هو محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني، كنيته أبو عبد الله، يعرف بـ«شمس الدين» وبـ«الرئيس»

(44) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، عصر الدويلات والإمارات،دار المعارف، مصر ط1 ص157

(45) المرجع نفسه،ص:158

(46) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام ج3ص:516.

(47) العربي دحو: إطلالات مقاربة للأدب الجزائري الحديث دار الهدى عين مليلة الجزائر 2011 ص:14

(48)المغيلي التلمساني 790هـ /ت911 فقيه ومفسر نشأ بتلمسان ثم سكن واحة توات بالصحراء الكبرى ووقعت له حوادث خطيرة مع يهودها ،كان شبيها بابن تيمية في محاربة البدع ينظر كتاب ارشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر ص 368

(49)محمد عبد الغني الشيخ: النثر الفني في العصر العباسي الأول، اتجاهاته وتطوره،ط1ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر1983

(50)يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة،ج2،ذار البصائر،الجزائر 2009ص:150